الكتابة المسرحية وسؤال التراث
"زنوبيا في موكب الفينيق".

د. بشرى سعيدي، المغرب.

تقديم:

لاشك أن العودة إلى التراث في المسرح العربي كانت لها دلالات عديدة، فبعد أن اغترف المسرح من الريبرتوار العالمي وجد نوعا من الغربة إزاء هذا التجريب. مما حذا بمجموعة من المؤلفين الدراميين إلى التحاور مع الأجناس الأخرى لتحقيق نوع من المصالحة الذاتية مع الهوية العربية، وذلك لتحقيق فهم أشمل وأدق للذات العربية.

في ظل هذا السياق ظهرت أصوات عديدة تبحث عن مسرح بديل لما هو كائن وملائم لوعي ذاتي وفق جمالية عربية. ولذلك ظهرت أسماء عربية انتشرت عبر رقعة الوطن العربي عموما والمغربي خصوصا، ولهذا فقد اخترنا في هاته المداخلة الدكتور عبد الرحمن بن زيدان الذي يعد من الذين انتهجوا هاته الطريقة والذين شكلوا رؤية مسرحية عربية حيث اخترنا نص: "زنوبيا في موكب الفينيق" والذي يجسد بجلاء اغتراف الكاتب من التراث وذلك بتوظيف التاريخ والأسطورة للتعبير عن الواقع العربي، مستلهما الدروس والعبر من الماضي المجيد، مقنعا بالتراث لأنه رغم التشدق بالحرية والديمقراطية إلا أن المثقف لازال محاربا من طرف الأنظمة العربية لكونه الواعي الحقيقي بالوضع المعيش. فكان التراث وسيلة للتستر وقناعا للهروب من المساءلة، وهكذا سنعمل على تحليل المسرحية مستخرجين دلالات الأسطورة والتاريخ بها.

ويتواصل الإبداع مع الدكتور عبد الرحمان بن زيدان، لنجد له حضورا متميزا في نص آخر وسمه "بزنوبيا في موكب الفينيق"، إنه نص يبوح بالعمق التاريخي للإنسان العربي، لقد حيث حاول فيه الكاتب بن زيدان أن يطرح من خلاله صراع الأفكار والمواقف ليؤكد رؤية ناقد ومؤلف خبر الفلسفة وعشق الهوية العربية،

مواصلا سيرورة مجموعة من الباحثين الذين سبقوه في تأسيس النص المسرحي المغربي، لكنه يكتب بنكهة خاصة، يعود من خلالها إلى التاريخ فلا يعيد بعثه من جديد، وإنما يستقي منه ما يلائم الحياة المعاصرة بحيث يلبس قناع الأسطورة ليمرر رسائل في زمن يعيش حالات من الخرس التواصلي، ويحتاج إلى الرمز والمجاز ليكون أكثر تعبيرا وشاعرية وذلك لإسقاط الأقنعة في الواقع العربي الفاسد الذي نأى عن الديمقراطية أشواطا عديدا. إن كتابة هاته المسرحية هي نوع من التجريب المسرحي للكاتب، والذي طالما كتب كتبا عديدة عنه.

إنه بمثابة محطة لاستلهام التراث والعودة إلى إدراج التاريخ للتفاعل معه، وعصرنة شخصياته لتلائم واقعا معاصرا، وتسعى فيه الكتابة المسرحية إلى البحث عن الهوية العربية التي بدأت تفقد ملامحها بفعل المدنية المتوحشة وطغيان التكنولوجيا في زمن العولمة. إن المسرحية هي محاولة مد جسور الحاضر بالماضي والبحث عن نقط التوحد بينهما، وذلك لتأسيس ذاكرة معاصرة من خلال وعي فردي يمتح من وعي جمعي يلم من خلاله المتناقضات ويجمع فيه بين الشعور واللاشعور، ويمزج فيه بين الحقيقة والخيال هدفه في ذلك إيجاد أجوبة لأسئلة مفتوحة. نص ينتمي إلى المسرح التجريبي الحديث الذي لا ينحاز إلى مسرح العبث بصفة كلية ولا يعتمد على الواقع بطريقة فجة، وإنما ينهل من هذا وذاك مبدلا المعطيات القديمة بأخرى حديثة مغلفة برموز مكثفة، اختار منها الكاتب طائر الفينيق كرمز أسطوري والملكة زنوبيا كرمز تاريخي، ولا شك أن للمبدع حريته الكاملة في اختيار هذين الرمزين، لكن تبقى الإشارة إلى أن هذا النص التجريبي قد نهل من المنهج الاحتفالي الذي يعد الكاتب أحد مؤسسيه، لكن تبقى الإشارة إلى أن هذا النص هو محاولة تجريبية بامتياز توصل الحاضر بالماضي وتستشرف غدا يحلم فيه الجميع بالمساواة والديمقراطية داخل العالم العربي.

أ-العودة إلى التراث والتاريخ لإسقاط أقنعة الواقع:

-لاشك أن العديد من المبدعين المسرحيين الذين عادوا أدراجهم إلى كنف التاريخ للنهل منه خصوصا بعد النكسات التي عرفها الوطن العربي،- الذي لم يفتأ أن تعرض لنكسات جديدة بطعم آخر- فبعدما كان العدو هو المستعمر الغاشم أصبح العدو في الداخل هو النظام الحاكم في البلدان العربية والتي جعلت شعوبها تعيش إحباطا وإحساسا بالظلم والمهانة في ظل الاستبداد والغطرسة وقهر المواطن، مما عجل بربيع عربي عصف بالأنظمة الديكتاتورية ، ناهيك عن انخراط العالم العربي في نظام العولمة بطريقة استهلاكية فجة مبالغ فيها، وهذا ما أفرز عدة مشاكل جعلت الإنسان العربي يقف في المابين:العالم المتحضر الغربي والعالم العربي الذي ظل منذ عقود يسير في طريق النمو. كل هاته الأسباب دفعت المؤلفين الدراميين إلى العودة إلى الماضي "و كان حقيقة تفصح عن التناقض الذي نصارعه ويصارعنا، الصراع من أجل البقاء، من أجل الحفاظ على الهوية،في لغة الناس،وفي أحاسيسهم ، وفي انفعالهم ، ووعيهم بحياة مدنهم التي تقبلهم أو تطردهم، كل هذا لإستلهام الدروس وأخذ العبر من أجل بناء مستقبل مشرق. لذلك نجد الدكتور بن زيدان مسرحيته التي نحن بصدد دراستها قد غاص في أعماق التاريخ واستنشق عبق التراث، دافعه في ذلك حبه القوي لوطنه وانتسابه المتين للقومية العربية.باحثا بذلك عن الهوية العربية الأصيلة،الذي ظل يبحث عنها في تنقلاته بين مدن الوطن العربي،يقول الكاتب بهذا الصدد:"هذه الزيارات مكنتني من الإلتقاء بوجه واحد لهذه المدن التي تخاطب فينا نبض المبدأ ،ونبض العشق ،وحقيقة التاريخ المهمش فينا، فكان التخاطب تعبيرا عن وجه الإنتماء إلينا"[1]. إن توظيف التاريخ لدى بن زيدان لم يكن من باب العبث أو من باب التجريب لا غير، وإنما هو صادر عن ذات واعية عاشت غياب الديمقراطية وعاينت معاناة المثقف ورغبت في إثبات الذات العربية. يقول الدكتور في هذا الصدد: "وكنت أسبر غور المثقف في المثقف ،وأقرأ التاريخي، وأهاب جرأة وغموض وهذيان النفسي..."[2]

إن كتابة هذا النص هي تعبير عن النحن المفقودة في الذاكرة الجمعية العربية، المتأثرة بالقمع والترهيب، لذلك كان اللجوء إلى التاريخ. إنها دعوة جديدة للأخذ بالتاريخ العربي بدل الانغماس في الاتجاهات الغربية وإسقاطها على البيئة العربية بل حتمت الضرورة الأخذ بالماضي والحاضر، بالأصالة والتغريب إنه البحث عن البديل الذي يقدم أجوبة لأسئلة الثقافة وربطها بالواقع المعيش. إن المسرحية هي نقاش فكري يعيد قراءة لحظات تاريخية بغلاف أسطوري مما يؤشر لفهم مسرحي

نابع من التعامل مع المسرح نقدا وتنظيرا. إن هوس الكاتب بمسرحة التراث لم يكن من باب التشدق أو التقليد وإنما كان نابعا من دراية عالمة بضرورة العودة إليه من أجل مواجهة الضحالة الفكرية والبحث عن الجديد في التراث لإعادة مجد بدأ يفتقد بمنطق الشرعية الدولية والتي تسعى إلى تنميط الفكر والثقافة.

*** دلالة طائر الفينيق:**

إن لجوء الكاتب إلى طائر الفينيق له دلالات عديدة في المسرحية، فكما هو معلوم، الفينيق رمز للحياة المتجددة وهو الكائن الأسطوري الذي يحكى أنه كان يسكن الجنة، لكنه بعد عمر طويل وحلول موعد موته نزل إلى العالم الأرضي وحط بالشرق ليجمع باقة من الأعشاب العطرية فحملها معه إلى فينيقيا حيث بنى عشه هناك، لكن إله الشمس الذي أراد أن يغادره بعد أن استمع إلى أغنيته نهر أحصنته التي انطلقت منها شرارة أحرقت عش الطائر الذي اعتقد أنه مات، لكن بعد ثلاثة أيام انبعث من رماده من جديد، فاعتبر الطائر الذي يخلق من نفسه على خلاف باقي الكائنات التي تبعث من كائنات أخرى. إن طائر الفينيق هو دلالة على الخير الموجود في المجتمع والذي يحارب من طرف قوى الشر إنه رمز المسؤولية التي وقفت سدا منيعا أمام رموز الفساد المستشري في الوطن العربي.

إن انبعاث الفينيق هو دلالة لحب الوطن الذي لا يفنى، إنه رمز للصوت الحر الذي لا يخشى لومة لائم والذي قاده إلى السجن. والسعي إلى كسر القيد، وهو رمز أيضا للمثقف المحارب الذي تسعى الأنظمة الديكتاتورية إلى شل حركته من أجل عدم فضح خروقاتها. إن استعمال رمز الفينيق له دلالة عميقة لكونه يمرر مواقف سياسية مقنعة بالتراث لصياغة رؤية الكاتب التراجيدية إزاء العالم المعاصر، مما أضفى جمالية إبداعية على المسرحية.

ومعلوم أن اللجوء إلى التراث قد كانت له أسبابه: أهمها محاربة الكتابات الصريحة التي تحاول إبراز أعطاب الأنظمة وتعري عن الواقع العربي المهترئ، وقد بدا واضحا ذلك من خلال المسرحية التي شملت كل الأمكنة وخصوصا أن الكاتب انتقل بين مدن عربية عديدة وخبر حكاياتها وعايش أهلها.

كما تشمل كل الأزمنة، ما دامت تتشابه ويعتريها الخلل من زمان لآخر. إن التيمة الكبرى في المسرحية هي التساؤل عمن سرق مفاتيح المدينة، لتتوالى التيمات الأخرى من داخل بؤرات دلالية تأرجحت بين الخير والشر/الحلم والواقع/السياسة والثقافة/الإنسان والمدينة/الأسطورة والتاريخ، ... كلها تيمات هيمنت على نواحي المسرحية، لكن ما يهمنا في هذا التحليل هو دلالة الأسطورة والتاريخ. إن العودة إلى

الفينيق كما سبق، له دلالته المباشرة وغير المباشرة، ذلك الطائر الذي توحد مع طيف زنوبيا في حب الوطن ودخل الزنزانة ورغم ذلك لم يخش أحدا حيث تذكر كل شيء، حيث نجده يقول في أحد المقاطع:

"الفينيق: أسألك.. مع أني لا انتظر منك جوابا، من جعل المكتبات تتحول إلى مقاه وحانات؟ ومن هدم قاعات المسرح والسينما وحولها إلى عمارات شاهقة؟ من حول الرياضات الأصيلة إلى فضاءات للسياحة الجنسية والشدود؟ من أغرق السجون بالأبرياء، وحو المدينة إلى سجن كبير يحكمه من سرق مفاتيح المدينة"[3].

من خلال هذا المقطع يتضح النقد الذي يمارسه الكاتب إزاء الفساد الذي استشرى في كل المدن العربية وجعل المواطن في حيرة من أمره، وذلك بعدم قدرته على التغيير، لكن المسؤولية الملقاة على عاتق المثقفين، جعلت الكاتب يصرح بما يحدث بالمدن مبرزا أن طائر الفينيق قد رفع رهان التحدي من أجل حب الوطن، إنها مسؤولية تاريخية يتحملها المثقف العربي ومن ثمة يعود أدراجه إلى التراث بعد الإحساس بالدهشة من كثرة الصدمات التي تلقاها العالم العربي، إنها محاولة لاستنهاض العزائم وكشف المتلاعبين بمآل الأوطان الذين لا هم لهم سوى القضاء على كل من يفهم ألاعيبهم، لذلك نجد الشخصيتين الأخريتين في المسرحية تقولان:

"الدمية : (بحزم) لا تخف، لقد جعلنا لكل جدران المدينة آذان.
العراف : وبدأنا في تعطيل العقول والكفاءات.
الدمية : وجعل الناس.
العراف : (مكملا) دون ألسنة.
الدمية : ودون عقول.
العراف : سخريتك السخيفة تفسد متعتي بحضوري بينكم...
الدمية : وما العمل؟
العراف : محاصرة كل من يخرج على القانون ومحاكمته؟"[4]

إنها إشارة صريحة من المؤلف إلى توضيح الحصار المضروب على المثقفين وعدم ترك الحرية لهم للتعبير لأن الكتابة سلاح فتاك، ولأن علاقة السلطة بالمثقف تظل علاقة شد وجذب، لأن كل منهما يفهم الآخر ويدرك نواياه، وما دام المثقف هو لسان الأمة، فيلزم تكميم فمه، ومصادرة كبته، ومطاردته أينما حل وارتحل حتى لا يكشف الحقيقة للمواطن العادي والذي يظل منشغلا بالبحث عن قوت يومه دون أن يدري أن قوته سرق من طرف من ولاهم عليه، ما دام الإنسان غير المناسب يوضع

في المكان غير الملائم له وهذا ما توضحه شخصيات المسرحية الرئيسية والمتمثلة في: (الفينيق، زنوبيا/الدمية، العراف) إنها ممثلة للمتناقضات في الواقع، فالزوج الأول يمثل الخير في حين تمثل المجموعة الثانية الشر ويظلان في صراع عبر صفحات المسرحية يبثان من خلالها رسائل عديدة تمثلت في أن الأشرار هم من يمتلكون مفاتيح المدينة ويتحكمون في رقاب العباد عبر توزيع آثم للثروات المستولى عليها، وهذا ما سنكتشفه في المقطع التالي:

"الدمية : أنا من يقرر مصير هذا المارق.

العراف : بل أنا من يملك مفاتيح واجهة هذا السافل.

الدمية : ليس هذا اتفاقنا بل أنا من يقرر.

العراق : اتفاقنا أن نقتسم خيرات مدينة تدمر.

الدمية : صحيح.. ولا يكون بين مصالحنا إلا المصلحة المشتركة.

العراف : الاختلاف في الإعلام وأمام الناس واجب.

الدمية : وحين نكون معا لا يكون بيننا خلاف"[5].

إن العودة إلى التراث ما هي إلا حيلة ذكية من المؤلفين الدراميين لقول الحقيقة المؤلمة وإبراز ترهل العالم العربي وسقوط جذوته أمام النظام العالمي الجديد، ويعد الحوار التالي أهم مقطع يوضح ذلك:

"العراف : هذه هي الحكمة يا حكماء.. إن هذا المارق لا يملك كما يقول سوى فكر وسؤال.

الدمية : بماذا نتهمه إذن؟

العراف : فلنتفق معا على وضع لائحة بالتهم التي سنوجهها له.

الدمية : لنفتح الملف.

العراف : إنه كدس الأموال من مداخيل الذهب انتقاما من الفقر.

الدمية : من الأحسن أن نتهمه بملكية أسلحة الدمار الشامل.

العراف : وماذا أيضا؟

الدمية : إنه حرم شعبه من فضائل المعرفة.

العراف: وبماذا نغلق هذا الملف الساخن اللعين؟

الدمية : في كل وسائل الإعلام نردد أنه خرج من طاعة المجتمع الدولي"[6].

لاشك هذا المقطع لا يمكن أن يقال بين شخصيات ورقية تحمل أسماء عادية وإلا لقبض على المؤلف بتهمة تشابه الأحداث والشخصيات، لكن تغليفها بقناع التراث

مسالة تملص من المحاسبة، فالعراف شخصية تراثية والدمية تعيد بنا الزمن إلى مسرح العرائس الذي كان موظفا بطريقة عجائبية معبرة. إن تفاعل الكاتب مع القضايا المعاصرة وتأثره بسقوط بغداد كأول حاضرة عربية كان ممهدا لسقوط باقي الحواضر العربية التي عرفت توترا في زمننا المعاصر.

و لا شك أن الكاتب قد أشار إليها رغم تعتيمه على إسم المدينة المقصودة، لكن الكلمات الموظفة أثبتت ذلك، فحرب الخليج كانت بمثابة الشرارة الأولى التي اندلعت وانتقلت إلى العالم العربي حتى مست كل الحواضر العربية. إن رمزية الفينيق دلالة على التشبث بالحياة بدل الموت أو الانكسار، فالفينيق رمز للمواجهة والنضال المستميت، إنه ينبعث من حر الرماد، ليواصل حياة جديدة يواجه فيها من سرق مفاتيح المدينة معاندا، ونمثل لذاك بالمقطع التالي:

"الدمية : أنت عنيد.

الفينيق : بعنادي عرفت من يسرق الخاسر، ويبتز الرابح، وعرفت من يتحالف مع الشيطان ليتعلم منه كيف يوسوس في صدور الناس لتبقى المفاتيح ملك يديه، وتبقى الضمانات التي يقدمها للناس من أجل العيش مزيفة."[7]

الفينيق رمز أسطوري يمثل حلما جماعيا لا يخشى الموت لأنه يتجدد كلما مات، هو رمز للعفة والزهد والبحث عن ما يعيد للمدينة سؤددها.

"الدمية : وأنت ماذا تعبد؟

الفينيق: أنا لا أعبد المال، أعرف، أعرف أن لك من المال ما يجعلك ثملا طول حياتك.

الدمية: بمالي أغير عالمك.

الفينيق: وبأحلامي أواجه مكرك، يا رئيس حزب الأغلبية في بلاد الوقواق.

الدمية: أحلامك ستدمرك.

الفينيق: إنكم تدمرون روحي في المدينة، وتدمرون من أحب.

الدمية: لنا مفاتيح مدينة تدمر وبغداد والقاهرة ومكناس وفاس ومراكش، والقدس وبابل وطرابلس"[8].

إنها إشارة واضحة من الكاتب إلا أن الفينيق هو رمز للنضال كواجهة للحياة، بكونه مصدر إزعاج للمسؤولين الذين لا يتحملون مسؤوليتهم كما يجب، إنهم يسعون وراء مصالحهم الشخصية، فكان الفينيق هو كاشف ألاعيبهم ومعري حقيقتهم وظلمهم الذي صار قانونا للمدينة ويحارب كل من خرج عليه ولم يمتثل للسلطة الحاكمة.

دلالة الملكة زنوبيا: [9]

هي الزباء بنت عمر ملكة تدمر والشام والجزيرة، عربية الأب، يونانية الأم من آل كليوباترة المصرية، ورثت الذكاء والبطولة والجمال من سلالتها، كانت سيرتها مشهورة لأنها قرأت كتب اليونان واتقنت لغات متعددة، تزوجت بأذنية الروماني الذي لقب بملك الملوك، سعت إلى توسيع مملكتها بعد أن اعتلت عرش الملك بعد وفاة زوجها، زحفت جيوشها إلى توسعة مملكتها كثيرا وشملت بلدان الروم، والشرق وجزيرة العرب لكنها لقت نهايتها بعدما حاربها الإمبراطور أورليانوس حاكم روما، وحين اقتيدت إليه أسيرة قيل أنها سممت نفسها حتى لا تستسلم.

زنوبيا رمز تاريخي بامتياز يؤشر لحب الوطن، رمز للتحدي والصمود إزاء الأعداء، هي رمز الخير الذي يسعى إلى الحلول في المدينة بعد أن تربص بها الشر واستولى الساسة على مفاتيح كل المدن، وقمعوا الحريات، وحاربوا المثقفين معتمدين على رجال يمثلهم الكاتب دراميا.

إنها رمز لمقاومة الغزاة والمستعمرين وحلم موعود بالتحرر من الروم، إنها ثورة ضد الظلم سواء الذي يقع من الداخل أو من الخارج، إنها رمز للحلم بالخلاص الذي يوحدها مع طائر الفينيق وهكذا يتضح الأمر من خلال المقطع التالي:

" زنوبيا: انتهى زمن وجودكم معنا، انتهت اللعبة.

الفينيق: كنتم تعتقدون أني أعيش تحت رحمة نظرتكم وقانونكم، وإنه ليس لي مكان أذهب إليه.

زنوبيا: كلكم كرهتموني لأني أريد أن أوحد الناس حول قضية واحدة.

الفينيق: نعم واهمون.

زنوبيا: واهمون حين يعتقدون أن استسلامي سيتركهم يفسدون العالم، تفكيري يطيل عمري، ويخلصني من صخب الحياة"[10].

لقد سعى الكاتب من خلال تجربته النقدية والتنظيرية الواسعة أن يؤسس بهاته المسرحية نصا تجريبيا مليئا بالرموز والإيحاءات، كما يتضمن مواقف صريحة وضمنية تغلفت بالتاريخ لإضفاء نوع من التراثية على الأحداث، لكنها صياغة جريئة لرؤية تراجيدية عميقة لما يحدث في العالم المعاصر.

إن عدم تسلسل الأحداث وحفاظها على الصعود الدرامي المعهود جعلها تمتاز بخصائص تجريبية، مكنها الرمز التاريخي الموظف بطريقة مغايرة من كتابة مادة إبداعية، مسكونة بهاجس المثقف الذي ما فتأ يناضل بقلمه من أجل التغيير، ذلك أنه وجد في ملكة تدمر رمزا تاريخيا يعد معادلا موضوعيا للمثقف الذي لا يستكين ولا يخضع، وهذا له أسباب عديدة أهمها: تحقيق الجمالية، يقول نور الدين الخديري في هذا الصدد:

"قد تكون ثمة أسباب وعوامل تدفع بالمؤلف المسرحي إلى توظيف التراث والاشتغال على الأسطورة، إلا أن أسلوب التعامل مع هذا التراث، والطريقة التي تتم بها معالجة بعض القضايا الملحة هي التي تختلف من مبدع لآخر، فإذا كان التراث مصدرا ثريا يتقاطع فيه الفكري والأسطوري، والعجائبي، والفلسفي، والعقدي، وغيرها من المتون التراثية، فإن المبدع المسرحي لا يستقي منها إلا ما يستطيع به تحقيق الجمالية الإبداعية التي تقوي مسرحه"[11].

يتضح من خلال قولة الخديري أن دواعي الأخذ بالتراث عديدة ولعل أبرزها لدى الدكتور بن زيدان هو محاولة التمويه على الأحداث وعدم الإفصاح عنها مباشرة في

زمن أضحى يحارب فيه المثقفون خصوصا الكتاب الدراميون، ذلك أن المسرح هو الفن الذي يكشف عن الحقيقة المزيفة بطريقة جمالية حالمة،و المسرح هو الإجابة عن الأسئلة الفكرية.

إن العودة إلى زنوبيا هي بمثابة انطلاقة جديدة ومحاولة عصرنة الشخصية لتتفاعل مع واقع معاصر بأسلوب حالم شاعري وبروح وطنية عالية للقومية العربية، هدفه في ذلك تحقيق تواصل بين الماضي التليد والحاضر المغلف بزيف الحضارة المدمرة، يقول الكاتب في المدخل الذي خص به المسرحية: "والمسرح بعالمه السحري والغرائبي والتواصلي يبقى فعلا إنسانيا للتواصل والكلام والحوار والحديث عن كل أنواع الصراعات داخل النفس الإنسانية وداخل كل المجتمعات التي لا تكف عن البوح الشاعري بفنونها عن هذا العالم بأشكال وألوان تختلف فيه مقامات هذا العمق، وتختلف فيه تجليات هذا العمق وتتباين فيه معاني الانتماء إلى الكتابة، وإلى الذات، والى العالم"[12].

إن مشاركة زنوبيا حب الوطن مع الفينيق جعلهما يتوحدان معا، يركبان موكبا واحدا تختلط الأسطورة فيه بالتاريخي لتصوغ بعدا تراجيديا يعبر عنه الكاتب بقول في المقطع التالي:

" زنوبيا: لماذا هذا العشق المجنون الولهان بالمدينة يا فينيق؟

الفينيق: مدينتي لا تحب الفراغ.. مدينتي تحب الأنس اللذيذ.. والنور.. مدينة تحب أن تكسر أصفاد العزلة التي طوقت حداثتها.

زنوبيا: من يهدينا إلى الرشد؟

الفينيق: يهدينا الإيمان إلى الإيمان"[13].

إنها دعوة صريحة للانخراط في الحداثة ما دامت المدينة تحافظ على أصالتها وتتشبث بهويتها. إنه انفتاح على الخارج بطعم الداخل، إنه مزج بين الأصالة والمعاصرة، عودة إلى الماضي للأخذ من عبقه الثري المليء بالأمجاد والبطولات

والدفاع عن الوطن بعد أن أصبحت تعاني من المدنية المتوحشة التي أرادت طمس هوية كل الحواضر العربية يقول بن زيدان في المسرحية:

"الدمية: أنت لا تعرف المدينة.

الفينيق: المدينة المجهولة برفضي لكم تريد أن أعرفها أكثر، تريد أن تعرف عني أكثر، وهي التي تعرف عني أكثر ما أعرفه عن نفسي، مدينة تكلمني بهمس لذيذ، الآن مدينة تدمر تتسكع بكم في ظلمة الليالي بعد أن كانت حسنا يبدو من طلعته، مدينة كانت تكرر بفرح طفولي ابتسامة عمقها كذلك وفاء إلى هذا الهمس الذي قاد زنوبيا إلى مكناس وبغداد والقاهرة وفاس وتونس وبيروت وقاد إلى مكناس إلى كل المدن"[14].

إنه الشغف بعمق التاريخ والعودة إليه للتخفيف من ضغط لحظات الحاضر الذي يعاني من الفساد وانتهاك الحريات ومحاربة المثل والقيم بعد أن استولى القادة على مفاتيح المدينة ولم يدعوا أحدا يشاركهم ثرواتها وخيراتها.

إن حلول طيف زنوبيا في طائر الفينيق هو زواج سرمدي بين الأسطورة والتاريخ بعد حب إن لم يتحقق على الواقع قد يتحقق في خيال الكاتب فتجتمع الشجاعة بالإصرار، والأمل بالإباء، ليتحقق التحرر من كل الشوائب ومن ثمة تتحقق الحياة الأبدية.

نستخلص من هاته الدراسة بعد تحليل دلالتي طائر الفينيق والملكة زنوبيا أن الناقد والمبدع بن زيدان قد استمد قوة فكرية من مرجعيته الأسطورية والتاريخية التي طالما ناقشها في كتبه النقدية في إبداعات الآخرين إنها قوة جعلته يعبر عن مواقف صريحة للعالم العربي لكنه غلفها بقناع التاريخ. إن "زنوبيا في موكب الفينيق" نص مسرحي مكثف بدلالات وإيحاءات عديدة حاولت إسقاط الأقنعة مما أكسبها فرادة قلما نجدها في غيرها من المسرحيات التراثية، مما جعل الكاتب في البداية المسرحية يشير إلى صعوبة تجنيسها، ولا شك أن الكم المعرفي الهائل الذي يتمتع به الكاتب هو ما ساهم في تميزها فلا يمكن لتجربته الخصبة في المجال

التنظيري والنقدي إلا أن تكون له سندا في أعماله الإبداعية، حيث اكتسبت المسرحية خصوصية درامية، فلغتها تميزت بالشاعرية المكتنزة بالرؤى الصوفية والفلسفية التي لا ينقاد فهمها إلا لقارئ متمرس مثقف. إن الخطاب المسرحي في هاته المسرحية يتمتع بالروح الوطنية والإحساس بالقومية العربية التي عرف بها الكاتب وعبر عنها عبر أنفاس المسرحية، إنه خطاب يمكن أن يصنف ضمن المسرح الرمزي الذي يحقق متعة خاصة للقارئ أكثر من المشاهد، إنها بمثابة صرخة مدوية ضد الفساد والأوضاع المزرية بالعالم العربي عبر طرح مسرحي يوظف التخييل والواقعية لتحقيق ثورة نقدية مغايرة. لقد تمكن الناقد بن زيدان من إعداد موكب ثوري بطلاه الفينيق وزنوبيا، للدلالة على أن التراث معادل موضوعي لقراءة الواقع المعاصر الذي يظل مرتبطا بالتاريخ الذي وقعت فيه أحداث مشابهة لما يحدث الآن، فكانت الضرورة تحتم الرجوع إليه للاستفادة منه، لا البكاء على أطلاله،"إن الباحث د عبد الرحمن بن زيدان يضع التراث داخل موضعه الصحيح ،أي داخل التاريخ الذي هو التغيير بالأساس،ومن هنا فإن الإرتباط بالتراث هو في حقيقته ارتباط جدلي بالذات المغيرة والمتغيرة، وذلك في إطار عالم لايكف عن التغير والتحول ، إنه ارتباط بذاتنا نحن الأن ،هنا.."[15] كما أنه من الأنسب التسلح بقناع الأسطورة التي تساهم في تكثيف الدرامية بالنص، مما يحقق بوحا يقي الكاتب من المتابعة ويحقق متعة للقارئ المتشوق إلى نص يحقق له اللذة المفقودة في الواقع.

المصادر والمراجع:

1- د. عبد الرحمان بن زيدان، زنوبيا في موكب الفينيق، الطبعة الأولى. الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة 2012.

2- نعيمة الحرشي، نور الدين الخديري: تجديد رؤية النقد المسرحي العربي في الكتابات الدكتور عبد الرحمان بن زيدان، مكناس، المغرب، 2013.

- عبد الرحمن بن زيدان : التجريب في النقد والدراما ،منشورات الزمن – مطبعة النجاح الجديدة – الطبعة الأولى 2001 3

4 - عبد الرحمن بن زيدان: مدن في أوراق عاشق، مطبعة سندي،مكناس الطبعة الاولى 1999

6-عبد الكريم برشيد: الكتابة بالحبر المغربي في كتابات الدكتور عبد الرحمن بن زيدان مطبعة رانو،الطبعة الاولى الدرا البضاء2003

الهوامش:

[1]- عبد الرحمن بن زيدان: مدن في أوراق عاشق، مطبعة سندي،مكناس الطبعة الاولى 1999
- عبد الرحمن بن زيدان : التجريب في النقد والدراما ،منشورات الزمن – مطبعة النجاح الجديدة – الطبعة الأولى 2001[2]

[3]- د. عبد الرحمان بن زيدان، زنوبيا في موكب الفينيق، الطبعة الأولى. الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة 2012، ص: 101

[4]- عبد الرحمان بن زيدان، زنوبيا في موكب الفينيق، مرجع سابق، ص: 50 – 51.

[5]- نفس المرجع، ص: 55.

[6]- د. بن زيدان، زنوبيا في موكب الفينيق، ص: 56.

[7]- المرجع نفسه، ص: 73.

[8]- المرجع نفسه، ص: 74.

[9]

[10]- المرجع نفسه، ص: 138.

[11]- نعيمة الحرشي، نور الدين الخديري: تجديد رؤية النقد المسرحي العربي في الكتابات الدكتور عبد الرحمان بن زيدان، مكناس، المغرب، 2013، ص: 126.

[12]- مدخل المسرحية، ص: 26.

[13]- المرجع نفسه، ص:48

[14]- المرجع نفسه، ص: 118.

-عبد الكريم برشيد: الكتابة بالحبر المغربي في كتابات الدكتور عبد الرحمن بن زيدان مطبعة [15]رانو،الطبعة الاولى الدرا البضاء2003 ص:97